السيرة الشعبية، الهوية المحكية

Folk biography, narrative identity

شهرزاد بوسكاية

Chahrazad BOUSSOUKAIA

جامعة ميلة،c.boussoukaia@ centre- univ- mil

الاستلام: 2020/05/15 **القبول: 2020/09/05** **النشر: 2020/06/30**

ملخص:

تصدر السيرة الشعبية عن رؤية حلمية، تتحرى الإيهام بالسامي المثالي المفارق لمنطق الإمكان عبر نسق تخييلي فتكشف بذلك عن الفطرة الشعبية التواقة إلى مجاوزة محدودية القدرة المتاحة المولعة بالتزود الخيالي (التعويض الخيالي)، ولكن إغراقها في الخيال و في العجائبية لا يعني بأي حال من الأحوال بعدها عن الواقع العربي و الهوية العربية، بل إنها صدى للبيئة العربية؛ تعكس صورة مشرقة للخلق العربي الإسلامي والمثل العليا بما تحمله من حقائق تاريخية وما ترصده من تقاليد و عادات تمكننا من رسم جغرافيا للهوية العربية الإسلامية.

كلمات مفتاحية: السيرة الشعبية، الهوية، مرويات العامة، الاميرة ذات الهمة، البطل، الحكي.

Abstract

Folk biography belongns to general tales, this bilonging made it take shape away from the official culture which, on the whole, cares about the tales of private people; this lled to the negligence of these tales . the marginalization of folk biography resulted inti its escape to the general public who made if full of unbridled imaginations. However, flooding it with the fantastic dosen't mean it's being away from the Arab reality and identity. It is rather a resonance of the Arab environement ; it reflects a brighter image of the Arab and Islamic manners, ideals, customs and traditions which enables us to draw an image of the Arab Islamic identity.

Keywords: Folk biography, identity, general tales, the hero, naration

المؤلف المرسل: شهرزاد بوسكاية، **الإيميل: c.boussoukaia@ centre- univ- mil**

تعريف السيرة الشعبية:

يحيل لفظ السيرة دلاليا على الطريقة، والسيرة هي: "الطريقة المحمودة المستقيمة" (الفيروز أبادي،1987: 5) كما تدل على الحديث، فيقال: سيّر سيرة؛ حدّث حيث الأوائل. وتشير الدلالة الأخيرة إلى أمرين؛ الأول تضمُن السيرة معنى الخبر أو الحكاية، والثاني الإشارة إلى قدم مرويات السيرة وربطها بأحاديث الأولين. ثم أصبحت السيرة بدلالتها الاصطلاحية العامة في الموروث الثقافي العربي والديني خاصة تحيل على الترجمة المأثورة لحياة الرسول، واقترنت بالمغازي الدالة على مناقب الغزاة (أعمالهم البطولية). (خورشيد، ذهني، 1980: 21)

ثم توسع مفهوم السيرة تبعا لتنوع الأشكال السيرية التي تنطوي تحت هذا النوع من القصص، فأصبح مصطلح السيرة الشعبية يدل على:" مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة ذات سمة فنية متشابهة وذات أهداف فنية متماثلة" (خورشيد، ذهني، 1980: 22)

والتعريف العلمي المعاصر للسيرة يحدد مكانها بين التاريخ و الأدب؛ فهي تاريخ من حيث تناولها لحياة فرد بطل له أهمية كموجه للأحداث في عصره، وهي أدب من حيث كونها انطباعات مؤلفها وتتلون بثقافته ووضعه الاجتماعي و موقفه من الحياة. (خورشيد، ذهني، 1980: 33)

موقع السيرة الشعبية في الثقافة العربية:

تنتمي السيرة الشعبية إلى مرويات العامة، وهذا الانتماء هو الذي جعلها تتشكل في منأى عن الثقافة المتعالمة التي كانت تعنى إجمالا بأخبار الخاصة، الأمر الذي أفضى إلى عدم العناية بهذه المرويات تدوينا ووصفا. (إبراهيم، 1975: 55)

إن تغييب مرويات العامة والسكوت عنها يرجع إلى موقع العامة من الثقافة العربية الاسلامية؛ إذ لم تحتل العامة في البنية الثقافية إلا موقعا هامشيا ولم ينظر الفقهاء إليهم إلا بوصفهم مجموعة من الرّعاع لا يمكن الاطمئنان إليهم. (الغزالي، دت: 6) وقد أدى ذلك إلى جهل شبه تام بالأصول الأولى لهذه المرويات الشفاهية العربية، فضلا عن الجهل بطرائق تكونها.

وتواجه الباحث في مجال السيرة الشعبية إشكاليتين:

أ-تشكيل السير الشعبية:

لم تشر المصادر الأدبية والتاريخية إلى السيرة الشعبية إلا إشارات مقتضبة في سياق ذمها، ولذلك فالغموض يحيط أشكالها الأولى والأسباب الكامنة وراء ظهورها، ذلك أن التدوين المتأخر الذي قام

به منشدوها لا يقدم إلا صورة لعصر أولئك المنشدين ولكن المؤكد أن جذورها ترجع إلى زمن أقدم من زمن تدوينها.

ولا يمكن حصر أسباب ظهورها إلا من باب تأويل متونها الضخمة كونها تستدعي بطولات أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطالا لعصور غير عصورهم، وهذا ما جعل بعض الباحثين يعلّلون ظهورها على أنه نوع من استحضار الماضي المجيد لمواجهة عصر انحسر فيه الدور العربي، وهناك من يعزو أسباب ظهورها إلى أسباب أدبية تتمثل في الحاجة إلى ظهور شكل إسلامي للتعبير الأدبي يبعده عن مظان الارتباط بالأشكال الأدبية المنحدرة من الأسطورة الوثنية. ويعزو البعض الآخر ذلك لأيام العرب وما حوته من أخبار كثيرة. (خورشيد، ذهني، 1980: 65).

ب- الإنشاد:

لإنشاد السير الشعبية العربية تقاليد شبه ثابتة؛ إذ يقوم المنشد بقراءة جزء من أجزاء السيرة، وقد ترافق القراءة الموسيقي(الربابة)، وقد يستعين بالسيف فيومئ به. ويحث المنشد- الذي يعتبر راويا- مستمعيه للمشاركة الوجدانية ولا يلتزم حرفيا بالمرويات المدونة وإنما يتصرف فيها تبعا لحالة الانفعال التي يثيرها في المتلقي. (إبراهيم، 1975: 112).

تجلي الهوية العربية في سيرتي الأميرة ذات الهمة وعنترة بن شداد :

تحملنا السيرة الشعبية على استحضار صورة الحكواتي؛ وقد تمشّق ربابته إذا جنّ الليل راسما للناس فانتازيا تتجلى من خلالها البطولة في كل صورها. ولكن نظرة عجلى لتلك السير تبين لنا ما تبطنه من قيم كالشجاعة والحكمة وإلى أي مدى تشكل فضاء دراميا ملحميا حافظا لذاكرة الشعوب.

بل إن بعض تلك السير وجدت أساسا لتمكين الهوية الثقافية و تمكين عوامل التغريب والمسخ التي تتعرض لها الشعوب العربية عند كل اجتياح.

ولتعزيز هذا المعطى التبريري لدوافع إنشاء وتداول السير يشير البعض إلى أهمية دراسة الشعوب وتراثها لفهم وتفكيك الذاكرة الثقافية. وفي هذا الإطار يرى بعض المهتمين بالسيرة ودورها في تشكيل الذاكرة الثقافية المقاومة للعدو أن سيرة "الأميرة ذات الهمة" هي سيرة فلسطينية شعبية تداولتها الأجيال منذ القرن الثامن الميلادي حتى يومنا. وقد شكلت جزءا أصيلا من الذاكرة الفلسطينية ذلك أنها باتت تعطي فضاء متسعا باتساع السيرة نفسها للحلم. (جبار، 2013: 118).

سيرة الأميرة ذات الهمة، سيرة يمتزج فيها التاريخي بالمتخيل الجمعي لتنتج ملحمة عربية تغطي قرنا ونصف القرن تقريبا من حكاية الصراع بين العرب المسلمين وبين الروم البيزنطيين الذين لم يتوقفوا عن تهديد أطراف الدولة الإسلامية. (نعمة الله: 22).

والأهم هو ما مثلته سيرة الأميرة من خلق تصور جديد عن مكانة المرأة المسلمة في الوعي الجمعي آنذاك الذي جعل من أميرة فلسطينية حجازية أسطورة مجاهدة تفتح القسطنطينية تلك المدينة الحلم التي قهرت الجيوش الجرارة دون أسوارها. (شوقي، 1978: 67).

وليس مصادفة أن السيرة التي اعتبرت على نطاق واسع دليلا شعبيا على احترام الثقافة العربية للمرأة تمثل أحد أشهر القصص الشعبية العربية التي تعكس القلق العربي القديم من مؤامرات كانت ولا تزال تحاك ضد العرب وليس مصادفة أيضا أن يحافَظ على هذه السيرة كأثر ينتمي للثقافة الإنسانية وفي مكتبات الغرب تحديدا، فلا يستبعد أن يكون السبب هو كونها "ملحمة عربية مجسدة لمختلف الرؤى والتصورات العربية الإسلامية وهي من هذه الزاوية تلتقي مع مختلف المصنفات العالمة وإن اختلفت طريقتها في التقديم والتمثيل وصعّدت كل ذلك بواسطة التخييل". (إبراهيم، 1975: 34).

هذا البعد الثقافي الحافظ للذاكرة والهوية العربية يتجلى أيضا في سيرة عنترة بن شداد حيث تتحدد البيئة العربية تحديدا يبرز العادات والتقاليد التي كانت سائدة آنذاك من إجارة للمستضعفين وإكرام الضيف والأخذ بالثأر والعناية بالخيل والاهتمام بالإبل وفرحة الأب عندما يبرز من أبنائه فارس له قدرة و قيمة ثم مكان المرأة الذي يشبه المتاع والمال؛ فسيرة عنترة " تحتفل احتفالا شديدا بالمكان والزمان، وهي تدور في الحقبة الزمانية السابقة للإسلام مباشرة وقدفهم المؤلف هذا وحرص عليه حرصا واضحا وشديدا حتى أننا نستطيع أن نقول إن سيرة عنترة وثيقة فنية حية ترسم صورة للحياة العربية قبل الإسلام". (خورشيد، ذهني، 1980: 234).

وباعتبار بطلها عبدا، فقد رسم المؤلف صورة لحياة الرعي وأعمال العبيد، وحركة السقاء وطعام القبيلة ورحلتها من مكان إلى مكان آخر، وحين يصل هذا العبد إلى مرتبة السادة، فإنه يرسم لنا صورا عن اجتماعات الشورى في القبيلة ومجالس السمر بين رجالها ونسائها.

كما وظف البطل ليحدد لنا ملامح وهوية الفارس العربي ومدى ارتباطه بفرسه وقيمة الفرس في الحياة العربية، ومغامرات السلالين لنهب أشهر الخيول. (خورشيد، ذهني، 1980: 232).

وتمكن البطل بفضل بطله المحب أن ينقل إلينا صورا عن حياة المحبين و لقاءاتهم في الجزيرة العربية وعادات الحب وتقاليده.

ومحاولة مؤلفها نسبتها للأصمعي إنما يحمل دلالة هامة هي محاولته الإيحاء بمدى ما في هذه السيرة من حقائق تاريخية وجغرافية. ونحن حين نضع ضمن الأهداف الاجتماعية للمؤلف رسم صورة للحياة العربية ورسم تقاليدها وعاداتها؛ فليس عنترة عند كاتب السيرة بطلا ما، وإنما هو بطل عربي يعيش في هذه البيئة المحدودة وينتقل منها إلى مختلف البيئات العربية الأخرى ثم ينتقل إلى البيئات المتاخمة للحدود العربية، وينتقل أيضا إلى البيئات الخارجة عن هذه الحدود. وحسب هذا الإطار يموقع المؤلف معلوماته في السيرة؛ ففي حديثه عن المجتمع العربي يتضح أنه يعرف كل التفصيلات الدقيقة التي تميز هذا المجتمع و تحدد تركيبته، فتصبح صورة هذا المجتمع غاية في الوضوح؛ مليئة بالحركة والحياة، جليّة الهوية و الكينونة.

وهو حين يخرج للحديث عن المجتمعات المتاخمة للحدود العربية يبدو في صورة العربي الغريب عن هذه المجتمعات والذي يعرف عنها الكثير بحكم ارتباطها ارتباطا مباشرا بالجزيرة العربية. ولكنه حين يصل إلى ما وراء الحدود العربية نلمح فيه صورة المأخوذ أو المستنكر لمعالم الحضارة والمدنية الغريبة عليه والتي ترتبط معلوماته عنها بالحدس وبالظن. (خورشيد، ذهني، 1980: 241).

ويطالعنا تجل آخر من تجليات الهوية العربية وإعلاء شأن العربي من سيرة عنترة بن شداد؛ حيث يدافع مؤلفها عن قضية الشعب العربي أمام الأجناس التي دخلت الإسلام وكانت تزعم لنفسها عراقة ومجدا يفوقان عراقة ومجد العرب، وذلك بأن نجد هرقل وكسرى يقران لعنترة بالفروسية بل ويعلي المؤلف من شأن سيفه العربي بأن يجعله سببا في بناء ملكهم والحفاظ عليه من الضياع.

ويتلاعب المؤلف كثيرا بهذا الموقف كثيرا؛ فحين ينهزم الفرس أمام الروم يقف عنترة إلى جوارهم فينتصرون وحين ينهزم الروم أمام الفرس يقف عنترة إلى جوارهم فيستردون ما فقدوا. (خورشيد، ذهني، 1980: 202). ويؤكد المؤلف على مكانة الفارس العربي في كل جزء من أجزاء السيرة مما ينم عن موقف الأمة الإسلامية من دعوى الشعوبيين التي تزعمها الفرس؛إذ أنها ترسم صورا للصراع بين العربي كفرد وبين الفارسي كفرد وتؤكد أن عنترة -البطل العربي الهمام- يفوق أبطال الفرس المعروفين من أمثال "رستم" القائد الفارسي المشهور.

ومن ثمة فإن شخصيات السيرة تعكس دفاعا عن أكثر من قضية من قضايا صراع العرب مع غيرهم من الشعوب. وتستهدف سيرة عنترة بن شداد: "مضامين سياسية بذاتها تلح على العصر الذي كتبت فيه، كما تلح على أهل هذا العصر الذين احتفوا بسيرة عنترة كمخرج لكثير فني لكثير من مشكلاتهم" (خورشيد، ذهني، 1980: 194)؛ والبيئات التي جرت فيها تجيب عن أكثر من سؤال من أسئلة

الهوية هذا وتعتبر السير الشعبية صدى للبيئة العربية بما تنطوي عليه من قيم اجتماعية وحضارية وأخلاقيات محاولة بذلك التوطيد لهوية عربية وكينونة قيمية حياتية خاصة إذا علمنا أن الهوية: "ليست بنية بسيطة، بل وسيلة لفهم مزيج التطابق والاختلاف اللذين تتكون منهما حياة الإنسان" (يامل رايص، دت: 80). وبالعودة لسيرة عنترة بن شداد نجد أن المؤلف قد استدعى شخصيات من قبيلة بني عبس تتسم كل واحدة منها بخصال جوهرية هي حقيقة الهوية العربية؛ فزهير وابنه قيس يتصفان بالحكمة وأصالة الرأي، وعروة بالشعر والفروسية وتزعمه لجماعة الشعراء الصعاليك، أما عنترة فهو تكثيف رمزي للدفاع عن أكثر من قضية والدلال على أكثر من خصلة من الخصال العربية. وحين اختار واضعا لسيرة شخصية عنترة ليجعل منه بطلا للسيرة استغل باقي الشخصيات لتسهم بسماتها ومآثرها في إبراز القضايا التي يدافع عنها.

وتدخل السير الشعبية باب الإبداع السردي بثقل ذاكرتها وثراء ما تحتويه من تجارب الشعوب العربية، وحلمية ما تقدمه من رؤى وتأويلات مشكلّة بذلك معمارا يؤرخ لوعي عربي.

ولقد حظيت معظم قبائل العرب بذكر خالد بعد الإسلام لارتباطها بأكثر من بطل لعبوا أدوارا هامة في نشر الدعوة المحمدية و لكن قبيلة عبس كان حظها قليلا، أو معدوما ولا يأتي ذكرها إلا داخل قبيلتها الأم "ربيعة" وربما يعود ذلك لانتهاء تكتلهم قبل الإسلام و فناء أكثرهم. (خورشيد، ذهني، 1980: 194)، فكان من الطبيعي حين يتفاخر الناس بعد الإسلام بمشاركتهم في الدعوة أن يبحث بن عبس عن سند يعتمدون عليه في أن يكونوا أصحاب حق في الدعوة الجديدة، و لهذا أخذ العبسيون يبحثون في تاريخهم فوجدوا أن أظهر شخصيات نقلها التاريخ الجاهلي إليهم هي شخصية عنترة، وبذلك استطاع مؤلف السيرة أن يجعل لقبيلة عبس مكانا في التاريخ. وأن يخلق لها كيانا يصلح أن يكوّن بيئة اجتماعية (نفسه: 194)؛ وتؤسس السيرة لرؤية متكاملة عن الثقافة العربية الإسلامية وتفرض نفسها كنصوص شاهدة على عصرها؛ يلجأ إليها دارس الأدب كما يلجأ إليها المؤرخ، وأحيانا المحدث والفقيه، فهي وثيقة متعددة الأبعاد، عديدة المزايا تجعل من نفسها نصا مشكلا في مقاربته والتعامل معه. (جبار،2013: 117)

والسير العربية في مجملها رصد للأنساب لأن الخطاب السيري "خطاب تولد عن الاهتمام بالأنساب الذي طبع السلوك العربي في فترة تاريخية معينة، ولهذا فقراءة السير في إطارها العام لن يخرج عن هذه الحدود التي رسمتها الثقافة العربية الإسلامية لهذا النوع السردي" (خورشيد، ذهني، 1980: 118). ويبدو أن العصبيات السائدة آنذاك كانت من المحفزات المساهمة في حيوية النص السيري سواء على مستوى التأريخ، أو تمرير قصدية معينة للقارئ وهو يتلقى هذا الخطاب.

السير الشعبية تنتج أنساقا مضادة للتواريخ الرسمية: (الهوية المضمرة)

تمثل السير الشعبية العربية واحدة من أخطر الأنواع السردية في إنتاج أنساق مضادة للتواريخ الرسمية، فقد أنتجت تاريخا متخيلا لمناوأة خطاب السلطة متحايلة بذلك على أنساق تهميشها ونبذها. (إبراهيم، 1975: 211)؛ وبطريقة دراماتيكية وجذابة تنهض السيرة بكل أبطالها برسم هوية حقيقية للشخصية العربية بكل ما تنطوي عليه من قيم جوهرية حتى وإن كانت من المسكوت عنه؛ وهذا يعني أن تاريخا مسكوتا عنه قد غيّب وأقصي بفعل عوامل إيديولوجية وثقافية.

إن هذا الإقصاء والتغييب أوجد تمثيلات ثقافية احتفت بالمتخيَّل السردي المفارق للحقيقة التاريخية، وخاصة سيرة الأميرة ذات الهمة؛ ترد فيها الكثير من الأخبار كحيلة سردية، وهي منسوبة للأصمعي وسواه من الرواة في أمور متصلة ببعض الخلفاء والحكام؛ تحتفي ببعضهم وتقصي بعضهم الآخر، وقد تعرضت هذه الأخبار لقدر من التحوير و التحويل النصي وفارقت التاريخ الرسمي. (خورشيد، ذهني، 1980: 211) ومن هنا أمكننا القول أن السير الشعبية العربية تؤسس لخزان معرفي رمزي مشحون بأنساق معرفية كاشفة في بنية العقل العربي، ولهذا فإنه يمكننا أن نسد شواغر التاريخ من خلال قراءة سير البطولة الشعبية في عدد من التجليات عميقة الدلالة، وأن نقرأ بإنصاف ثقافة شعوبنا المهمشة حين حمّلتها للبطل السيري ليرسخها في شكل عادات وتقاليد ومعتقدات، راسما جغرافيا للهوية العربية.

يمثل بطل السيرة الجانب المأثور من الهوية العربية؛ فأبطالها ليسو محض شخصيات في أسفار، "لكنهم الوعاء الذي انصهر فيه فكر أمتهم و ثقافتها، فالبطل ليس تمثيلا للجغرافيا التي يختبرها بعد فتح الأرض بل هو تمثيل للمعرفة والخبرات؛ إنه تمثيل لملامح أمة بأكملها" (نفسه: 212).

ومن العرف الاجتماعي ينمو وعي البطل وتتسع خبراته محققا هوية الجماعة وهو غير مفارق للواقع، لكنه ليس واقعا محضا، وليس تاريخا يمكن رصده بدقة المؤرخ لأنه مشحون في أحايين كثيرة بصبغة عجائبية غرائبية؛ إنه وعي إنساني عربي جماعي.

خاتمة:

تشكل المحكيات السيرية الشعبية العربية فضاء ملحميا حقيقيا، حافظا للهوية العربية الإسلامية، صحيح أنها ظلت ردحا من الزمن شفاهية وصنفت ضمن مرويات العامة المدنسة بالفحش والركاكة وأقصيت من الثقافة المتعالمة:

- إلا أنها ظلت منهجا وتراثا كاملا يحتفظ بكل مكوناته الثقافية والجمالية بالهوية الجوهرية للذات العربية في أسمى تجلياتها، وتمكنت من الحفاظ عليها من موجات المد العالي التي تنتجها العولمة في ظل طغيان القيم الاستهلاكية والمسخ الحضاري.

- إنها فسيفساء من الخيال الذي يعضدّ صور البطولة في أبهى تجلياتها العربية.

- فهي تعكس صورا عن مجتمعنا العربي، يمكن بدراستها معرفة الصورة الحقيقية لتكوين المجتمع العربي و حقيقة الصراعات الدائرة فيه وحوله.

- والسير الشعبية العربية نهمة إلى مراكمة أبلغ تمثيلات التفوق والكمال لذلك كانت صور البطولة في السير مثالا ذهنيا للتجلي المطلق للقيم العربية الإسلامية.

- بكل ما تنطوي عليه من ملامح النبل والحق والخير والجمال وكل الصفات الراقية التي يضمّنها المؤلف للبطل السيري الذي يمكن اعتباره وجود مصفّى للهوية العربية.

- كل ذلك في حيز درامي راسما فانتازيا لأحلام الشعب وما تبتغيه من مثل عليا في بطلها وإنسانها الأعلى.

تنفتح السير الشعبية العربية على تأويلات لا متناهية، وعلى مخزون معرفي هائل لذا لا بد من إعمال مناهج حداثية من شأنها الكشف عن أسئلة الهوية والتمثيلات الثقافية لهذه المرويات الخالدة.

قائمة المصادروالمراجع:

1-سيرة عنترة بن شداد (2002). طبعة بيروت..

2- ياملو رايص، (دت)، " الذات" تيمات الهوية : تر: يوئيل يوسف. دار المأمون للترجمة والنشر. بغداد.

3- سعيد جبار، (2013)، من السردية إلى التخييلية، منشورات الاختلاف .

4-شوقي عبد الحكيم، (1978)، الأميرة ذات الهمة، أطول سيرة عربية، مؤسسة هنداوي للتعليم. القاهرة.

5-عبد الله إبراهيم، (1975)، السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي، المركز الثقافي. بيروت.

6-الغزالي سليمان دنيا، (دت)، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، منشورات اقرأ.

7-فاروق خورشيد، محمود ذهني ، (1980)، فن كتابة السيرة الشعبية، منشورات اقرأ. بيروت.

8-الفيروز أبادي، (1987)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2.

9-نعمة الله، فن السيرة الشعبية في الأدب العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت